

1998

الأدب الحساني بين القديم والحديث

العتيك الطالب بوبا

مندوب وزارة الشؤون الثقافية، العيون، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Arabic Language and Literature Commons](#), and the [Comparative Literature Commons](#)

Recommended Citation

العتيك الطالب بوبا, "الأدب الحساني بين القديم والحديث" *Dirassat*: Vol. 8, Article 2.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol8/iss8/2>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

الأدب الحساني بين القديم والحديث

العتيك الطالب بوبا

مندوب وزارة الشؤون الثقافية - العيون

يعتبر الأدب الحساني كما هو الشأن بالنسبة لكل أدب بالمعنى الواسع للكلمة سجل هو الآخر لسكان الصحراء الناطقين باللهجة الحسانية بحيث تتجلى فيه الروح الصحراوية بكل أطوارها وعلى اختلاف مراحلها. فقد صور هذا الأدب حلهم وترحالهم انشدوه متحلقين على نار المساء والعتمة، حول كؤوس الشاي المترعة، على عرصات الربيع المزهر على ضفاف العدران، حادين وراء قطعان الإبل والأغنام متنقلين بين أماكن الكلاء والعشب فحفل بكل مجالات الأدب بالفخر والحماسة بالمعارك وميادينها، «الفركان» ونزلائها بالوحوش وفلواتها بالسرى بالهجرة وبأزوال (الجمال المخصي المعد للركوب) بالصيدح (القلوص) وحفل أيضا بالهجاء والرتاء والمرأة ومجالس اللهو والطرب والمغنيين (إكاون). قلت صور الأدب الحساني حياة أهل الصحراء تصويرا دقيقا بكل جوانبها الاجتماعية والأدبية الصرفة في بداوتهم الأولى وانتقل معهم إلى مدينتهم الحديثة فصور تارة أزوال - كما أشرت تم استعاض عنه بتصوير السيارة والشاحنة والطائرة ودخل مجال السياسة قصور الخلافات والأحداث التاريخية والمؤتمرات واللقاءات الدولية وغير ذلك. وبما أنه صورة ناطقة حية لحياة الإنسان الصحراوي كان لابد من تأثره بالبيئة التي يوجد فيها هذا الإنسان، فاختلف باختلاف الجماعات والحالات الاجتماعية والتقلبات النفسية والمعاش والثقافة والأوضاع السياسية على مقدار مفهومها، فآثر ذلك في أسلوبه وأغراضه في رقيه وانحطاطه ولا يفوتني أن أشير إلى مدى التصاقه بالدين خصوصا في البداوة الأولى الموهلة في القدم بحيث احترام الشاعر الصحراوي المشاعر والأعراف والتقاليد والعادات التي تتماشى والمقدسات الدينية فكان حبه عدريا محافظا مستورا مقدسا لا تسمع العورة فيه ولا السب كما قال الشاعر، وما دمنأ بصدد الحديث عن الشعر

الحساني أو الأدب الحساني عامة فلا بد من الإشارة إلى أولاد حسان الذين نسب إليهم هذا الأدب فهم حسب ما يقول الرواة بعض بطون معقل وفي تعريف آخر هم حملة السلاح وتعني إحدى الفئات المكونة للمجتمع - الصحراوي الممتد في وادي درعة إلى نهر السينغال آنذاك وهم فئة أولاد حسان الزوايا، اللحمة، وقد وجدت أقرب تعريف لأولاد حسان في هذين البيتين :

إِنَّا بَنُو حَسَنٍ دَلَّتْ فَصَاحَتُنَا إِنَّا إِلَى الْعَرَبِ الْأَفْحَاحِ نَنْتَسِبُ
إِنْ لَمْ تَقُمْ بَيْنَاتُ أُنْأَا عَرَب فَفِي اللِّسَانِ بَيَانُ أُنْأَا عَرَبُ

لهذا جاءت الحسانية قريبة جدا من اللغة العربية الفصحى فالكلمة الحسانية محرفة قليلا عن الكلمة العربية الفصيحة ناكة، ناقة، جمل، أجمل، حظرو، حضروا، الخ ... وهي تفهم بسرعة كلما قيلت ببطء أما الاسراع في النطق بها فيصعب معه فهمها من طرف السامع ما لم يكن حسانيا أو دي دراية فائقة باللهجة الحسانية.

واللهجة الحسانية ذلك الخازن الأمين لتراث شعبي مليء بالحكاية والمثل والبيت والقصيدة، كانت بذلك حبل التواصل المتين، التواصل الثقافي والاجتماعي عبر الزمن وقد جاءت منتورة ومنظومة فالمنتور منها ما تناول الخطاب والتحية والتحدث عن موطن من المواطن أو موضوع من المواضيع أو تذكار موقف من المواقف. ويجيد الصحراوي الوصف أيما إجادة فيخاطبك بأسلوب سلس مترابط متين شيق بحيث ترى مخاطبيه وقد أخذ منهم الانتشاء مأخذا بعيدا فيتم التعبير عن الاستحسان - بالمصافحة وضرب اليد باليد بين الفينة والأخرى، اما المنظوم فهو ما يسمى لدى الحسانيين (لغن) أي الغناء ويقصد به النظم على أبحر معروفة وأوزان ثابتة بحيث يوصف الشاعر بالمغني (لمغن) وليس معناه المطرب كما يتبادر إلى الأذهان من خلال اللفظ، وهنا يكون الفرق بين (لمغن) (والوزان)، فالوزان بهذه الصفة يستطيع أن يزن قوافيه على أي بحر دونما خلل في الوزن، وقد يتهلل المعنى ويضعف أما (لمغن) فهو الذي يزن فيجيد الوزن والمعنى معا مع الاختصار وجزالة اللفظ وسلاسة الأسلوب وهو بهذه الصفة أصبح (امغن) أي بارعا في إجادة نظم الشعر - الحساني وكلما أطلقت هذه الصفة على شخص فقد بلغ شأوا في النظم والإجادة.

بعد هذه اللوحة المختصرة عن الأدب الحساني والتي جئت بها على شكل توطئة للموضوع الذي سنحاول التطرق إليه وهو الأدب الحساني قديما وحديثا، لا بأس أن أذكر أن الموضوع شاسع ويتطلب جهدا كبيرا ووقتا أطول ولكن سأتناول بعض جوانبه فقط معطيا

بعض النماذج لكل باب واستسمح الحاضرين الأجلاء على عدم التقيد بالمنهجية العلمية خصوصاً أجدني أمام من رودوا القلم طيعاً والفكر صاغراً في مجالات معرفية شتى ولا شك أنهم سيقبلون عذري ويغفرون زلتي على أن أعود إلى الموضوع كلما سنحت فرصة أخرى إن شاء الله وعلى كل حال سأتناول الموضوع على الشكل التالي :

- الوحدة الأساسية للقصيدة الحسانية (الكاف) ومنه إلى القصيدة (الطلعة)

- الأبحر والاوزان.

- الأغراض.

- مقارنات.

- الأدب الحساني قديماً وحديثاً كخاتمة.

1) الوحدة الأساسية للقصيدة الحسانية (الكاف).

إن الوحدة الأساسية للقصيدة في الشعر الحساني هو الكاف، ويمكن أن يقابله البيت في الشعر العربي إلا أن البيت له صدر وعجز أما الكاف فيتكون من أربعة أشطر يسمى كل واحد منها تافلويت ولها نظام خاص بحيث أن قافية الشطرين الأول. والثالث تتحد في الحرف والحركة وقافية الشطرين الثاني والرابع تتحد في الحرف والحركة وإذا ما اتحدت الأشطر الأربعة في الحرف وجب الاختلاف في الحركة بين الأول والثالث من جهة والثاني والرابع من جهة أخرى قال الشاعر :

مَرَكُ الْعَيْنُ الْيَوْمَ إِلَّ عَيْنُ
فِيهِ الْعَيْنُ وَالْخَلَاكُ إِتْفَاكُ
أَكْلَحَمْدُ إِلَّ لَا مَرَكُ الْعَيْنُ
مَاهُ لَاهُ يَمَرَكُ لَخَلَاكُ

هذا نموذج اختلاف الحرف والحركة على غرار ما أشرت إليه أما اتفاق الحرف مع

ضرورة اختلاف الحركة فهو قول الشاعر :

مَنْ بَغْيِي الزُّهْرُ مِنْتُ الْبُخَارُ
رَيْتُ إِلَّ مَـارَ تَمِيمُ الدَّارُ

وقال آخر :

مَافَتْ أَنَا وَأَنْتَ لَثْنَيْنِ يَلْعَلْ أَبْكِينِ وَشَكِينِ
وَأَمْنَيْنِ فَالدَّارُ إِلَيْنِ مِنْ حَقِّ الدَّارِ إِنْجَبَيْنِ

هذان نموذجان للكاف في اختلاف قافية أشطره واتحادها مع اختلاف الحركة وأقل
«الكاف» أربعة أشطر ولا حصر لأكثره فإذا زادت التيفلواتن على الأربعة فوصلت الستة سمي
مسادس أو مثمان بالتعبير الحساني، وإذا طال أكثر من ذلك أي من سبعة فما فوق يسمى
طلعة ولو اتخذ طريقة الكاف في الوزن» قال بعضهم :

يَلْ مِنْكَ فَلْغَيْدُ تَاجٍ يَلْعَلْ أَبْكِينِ وَشَكِينِ
أَمْنَمْنِ كَافِيكَ وَأَجْلَاجِ الدَّائِمِ وَالشُّوفِ

أَمْفَنْ يُوْفَ وَجَلَّاجِ يُوْفَ وَالشُّوفِ تُوْفَ

وقال شاعر آخر :

تَبَدُّوْ الْغَطُوطِيَّاتِ مَوْطَايَ فِيهِمْ ذُلِّيَامِ
خَطْتُ إِعْلَ أَقْدَامِ الزُّرَاتِ أَلْ تَلْ أَطْرِيكَ لَرْجَامِ
بَأَنُولِ فَلْعَلْبِ أَخِيَامَاتِ وَأَثْرُ الْتِي مِنْ لَخِيَامِ
فِيهِ مَجْمَعِ مِنْ لَعْلِيَّاتِ يَطْحَكَ وَأَمْخَصَفَ لَكَلَامِ وَأَخْطِ
لَحْكُونِ مِنْ وَحْدِ كَلَمَاتِ لَكَلَامِ أَمْعِ التُّبْسَامِ
وَالْ مَزَالِ أَمْنَلَحِيَاةِ أَمْفَرَشْ بَنْ بَقْنِ تَامِ
أَفُوذْنِي ذُوْكَ الْكَلَمَاتِ وَقَعَيْنِي ذَاكَ التُّبْسَامِ

واستسمح من يجيدون معرفة بحر الأدب الحساني لأنني أعطيت مثالين في بحرین
مختلفين وهو ما لا يحمد عند الحسانيين المهرة في الأبحر، فمن العيب إنشاء شعر أو حكاية
في بحرین مختلفين ما لم يكن التسلسل الغنائي المألوف على أن لا يعود الإنسان إلى بحر
ودعه في الحال ولكن لا بأس من ذلك ما دما بصدد إعطاء أمثلة دونما غناء أو ترنم.

أما الطلعة وهي التي تقابل القصيدة في الشعر العربي فمبناها يختلف عن مبنى الكاف
بحيث تتحد قافية أشطرها الثلاثة الأولى في الحرف والحركة وتختلف عنها حركة وحرف

الشرط الرابع ويعد ذلك تأخذ سير الكاف أي شرط يتحد مع الثلاثة - الأوائل وشرط يتحد مع الشرط الرابع (اقصد في الحرف والحركة) وإذا ما اتحد الحرف فلا بد من اختلاف الحركة كما هو الشأن بالنسبة للكاف، والطلعة أقلها ستة اشطر ولا حصر لأكثرها وتسمى أشطرها الثلاثة الأولى (الحرر) والشرط الرابع الكسرة أي كسرهما بعد ما كانت على وتيرة واحدة مع الحر قال الشاعر :

يَا مَسْ تَدَلِيْتُ إِخْتَابَ إِعْزِيزَ ذِيكَ أَعْذَابَ
إِثْرَكُبْ خَرْبُ إِفْبَابَ خَيْمَتُهُ تَرْكَابَ
هُوَ حَالَتْ تَرْكَابَ لُخْرَابَ إِعْلَ بَابَ

ونلاحظ في هذه الطلعة أن القافية جاءت حرف الباء لكنه في الحرر أي الأشطر الثلاث الأولى جاء مجزوما وفي الكسرة (تافلويت الرابعة) مضموما ثم في الخامسة مجزوما وفي السادسة مضموما وتأتي القصيدة (الطلعة) إما مستقلة في بنائها كما رأينا في المثال السابق أو مبتدئة بكاف أو منتهية به وإذا ما ارتبطت عدة قصائد (اطلع) بكاف واحد تسمى (مظايرات أعل كاف) أي انهن شبيهات بالضرات وإذا ما ارتبط أول الطلعة بآخرها سميت (عاض اسببيه) وهذا النوع من الوزن - لا يتوصل إليه إلا الخبراء المرموقون كبار المغنيين قال الشاعر :

لَمَلِيعُ الْوَاسِ الْجَلَّاجُ فِيهِ أَكْغَفْتُ أَبَالِ يَتْرَاجُ
تَحْتَ النَّوْ اتْفَلَّافُ اعْجَاجُ كَلْتُ مَلَكْ حَدُ اللُّخْلَافُ
زَادَفَةُ وَكُفَ بَيْنَ أَمْوَاجُ التُّخْمَامُ امْحَادِيَةِ اتْفَاكُ
زَرَّ اطْلِيحَ افْخَلَوْ تَتْفَاجُ وَزَبِيعَاتُ اَلْخَلَلَاتُ اِنْتَاغُ
وَزَبِيعَاتُ اَلْخَلَلَاتُ اِنْتَاغُ عَكْبُ بَانُولِ مِنْ تَشْكَانُ
لَخْلَاكَ اِلْ مَضَاتُ اَزْمِينُ مَلْتُ فِيهِ اَلْيَوْمُ اَمْنَحْرَاكُ
أَيَامَاتُ اَلْحَدُ الثَّنِينُ اِلَّا خَطَّ مَا فِيهِمْ نَاكُ
لَمَلِيعُ.....

وقد تطول الطلعة الواحدة وتخضع لتزامن عمليتي الابداع الشعري والغناء لدى شاعر ما فتسمى عندئذ الكرزة أو التهيدنية وهي المطولات التي تثير حماسا أو مدحا ملفتا،

ويستحسن عند المغنيين (أي الشعراء) ان لا تقتصر القافية على حرف واحد بل يعقد بالمد قبل الروي وأحسن شيء ان تتشابه الأحرف الثلاثة الأخيرة كما لو كانت رويًا واحدًا، أما إذا اتحدت الكلمة الأخيرة في الأشطر الأربعة بالنسبة للكاف وكانت لكل منها معنى خاصا مع اتحاد اللفظ فهو مستحسن جدا، إذ ان الجنس نادر في الأدب الحساني وندرته أساس جماليته فيه، أما إذا تكررت الكلمة بنفس المعنى فهو ما يسمى عند المغنيين (ليط) وهو مردود على صاحبه وينم عن عجز الشاعر وخضوعه لضرورة الوزن بدل تطويعه للغة وترويده لها حتى تناسب المقام قال أحدهم في هذا السياق :

هَذَا لَخِيَامٌ إِلَىٰ أَخْطَاؤٍ مِنْذَاكَ الْحَرُّ الْفِيهِمْ
عَالَمٌ مُلَانٌ لَا خُطَاؤٍ إِيَّايَ مَا نَسَمِيهِمْ

فقد تكررت كلمة اخطأوا مرتين لكنها أولا جاءت بمعنى خلت من ساكنها المعين - وجاءت ثانيا بمعنى إن سبوني وشتموني ما أعرتهم جوابا .

وفي كاف ثان نستمع إلى الجنس الذي جاء به الشاعر حيث يقول :

ظَلَيْتُ الْيَوْمَ انْمَصْ رَبُّ كَلَمَ مَنْ وَلَفِ يَا أَهْلَ
وَالْكَلَمَ يَوْمَ امْجِ اصْرَبْ نَدَيْتُ أَكْغَالَتْ يَا لِ

فنلاحظ كلمتي انمص رب وامج اصرب فنجد ان آخرها الصاد والراء والباء وهي متقاربة في النطق فالأولى بمعنى امتص رحيق والثانية بمعنى مقدم القافلة أو - الوفد وفي الشطرين الأخيرين جاءت كلمتا ياهل فاتحدت لفظا واختلفت معنى، فالأولى بمعنى يا أهلي والثانية بمعنى قالت لي نعم بعدما ناديتها وهذا ما يسمح المجال بقوله عن الكاف والطلعة في الشعر الحساني مع شديد الاختصار وان سمحتم أعطي نظرة وجيزة عن الأبحر والاوزان التي يتم عليها البدع، فالبدع كلمة مأخوذة من - الإبداع، وهي كناية عن قرض الشعر الحساني، فالبدع هو الذي يجيد قرض الشعر معنى ومبنى وهو نفسه لمغن الذي أشرت إليه في المقدمة.

إن الوزن في الشعر الحساني يكون مقيدا بأبحر عدة وتجدر الإشارة إلى ضرورة تحديد المتحركات بينما لا حصر للسواكن لكن أحيانا يجب ترتيب السواكن - والمتحركات فيما بينها بالنسبة لبعض الأبحر وما يتعارف عليه من الأبحر هو : ابن وهيب (المديح) سيني،

بحرا واحدا من هذه الأبحر وهو الكحال أو اسغير كما يسمونه أحيانا، يختلف وزنه عن بقية الأبحر بحيث أن متحركات شطريه الأول والثالث لها سبع متحركات، بينما شطراه الثاني والرابع لهما خمس متحركات ونظرا لصعوبة التوافق بين هذه الأشطر قال الشاعر :

أَسْفِيْزُ مَا فِيْهِ لِلْمَعِ مَسْنَتُغْسِ ظَنِّيْتُ
تَافِلُوِيْتُ مِنْ سَبْعِ اخْمَسْ تَافِلُوِيْتُ

هذا كل يمكن أن أقوله عن الأوزان والأبحر اما عن الأغراض فلم يترك الشعر الحساني غرضا إلا طرقة من فخر وحماسة وهجاء ورثاء وغزل وأطلال وغير ذلك فجاء الشعر لصيقا بالبيئة الصحراوية مصورا لها من كل جوانبها الاجتماعية والثقافية والسياسية فكان بذلك لسانا ناطقا أميئا على ما أودع فيه من صور صحراوية مختلفة وسأعطي نموذجا أونموذجين لبعض هذه الأغراض.

(1) المدح : يقول أحد الشعراء في بحر لبياط :

أَحْمَدُ لِلدَّيْدِ إِلَى نَذْكُرْ لَعْدَ تَتَوَطُّ فَجُمُرْ
وَالْغَلْبُ إِخْفَ أَيشْتَمُرْ مَنْ نَذْكُرْ فَلَفْيَافِي
لَيْتَ اسْلِيْطُ أَحْمَدُ مَشْتَهَرُ بِالرَّجُلِ حَافٍ شَافِرُ
وَأَثَرُ الرَّجُلِ صِفَاتُ مَرِ الْأَرْدَمِ فَاتِ السَّافِ
يَعْطِ لِلطَّرْبِ أُمُولُ هَوْلُ وَدَيْبُ الْآهْ حَافِ
وَعَلَى اللَّ تَاكُلْ وَارْسُولُ أَفِي الْخَلْقِ الثَّانِ نَافِ

الشاعر يصف ممدوحه أحمد للديد وهو أحد أمراء التمرزة المشهورين بالقطر - الموريتاني وأشير بالمناسبة قبل شرح هذه القصيدة وتقريبها إلى أذن السامع أن الشعراء هناك مقسمون بحكم الإمارات آنذاك ولكل إمارة مغنون ومطربون ونذكر على سبيل المثال إمارة اترارزة (أهل محمد لحبيب)، أهل أحمد لعيدة أدرار وأهل اسويد أحمد تكانت وأهل لمحييميد (مشظوف) بهجة الحوظ.

ومن المطربين الشعراء (إيكاون) أهل اسيساح وأهل الميداح وأهل اندرت (سدوم وسيداتي) وأهل انقيميش وأهل عو وأهل انگذي.

وهناك شعراء البظان أي الغير مطربين لأن طبقة المطربين (إيكاون) تدخل في الفئة

البيئة التي يقطنها الشاعر إلى كثرة الرياح ومحوها لكل الآثار - ورغم قوتها ودوامها فلن تستطيع محو آثار شهامة ممدوحه فهو أيضا معطاء طروب وهي صفة من صفات الأسياد الذين تؤمهم وفود المطربين (إيكاون) فيكرمون وفادتهم ويعطونهم بسخاء والممدوح فضلا عن ذلك صاحب ظرف وأدب ومؤانسة وينحصره اعتماده على الله والرسول وينفي ما سواه.

من خلال هذه القطعة القصيرة تبين لنا أن الشاعر الحساني يجيد المدح فيضفي على ممدوحه أعظم الصفات مما يناسب البيئة الصحراوية فهناك الشهامة واذلال - العدو وترك الآثار واضحة المعالم والسخاء والأدب والطرب والاعتماد على الله دون سواه.

أما عن المرأة فكانت كل شيء في حياة الشاعر الصحراوي أليفه في بيئته مسانده ومعينه في حياته البدوية الصعبة ومؤنسة في وحشته وانفراد خيمته بين الشعاب، فجاء شعره فيها عذبا رقيقا شفافا ينساب بين أضلعه فيقطر من شفثيه زلالا فينسكب في الاذان رطباً لنا فيحرك كوامن نفس السامع ويجعلها تتشوقه وتنصهر معه بسهولة وفي غزل الشاعر الصحراوي نجد صورا بلاغية رائعة منها التضمين والجناس والتورية والكناية والتشبيه وغير ذلك ولنستمع إلى هذه - الطلعة للشاعر الشيخ محمد المأمون :

يَمَرِّمُ بَاشُ الْخَتَلَتَيْنِ	عَتِيلُ نَوْمًا سُبَاتَا
وَاللَّاءُ مِنْ مَاءٍ يَسْتَقِينِ	فَمَكُّ عَذْبًا فُرَاتَا
عَيْنٍ عَنْ غَيْرِكَ مَشْرُومٍ	أُوذِنَ عَنْ غَيْرِكَ مَكْلُومٍ
وَكُتِلَتَيْنِ لَيْنَ الْيَوْمِ	عِظَامًا عَتِ أَرْفَاتَا
غَيْرَ رِنْجِيكَ انْشَارَعُ يَوْمٍ	يَصْدَرُ النَّاسُ أَشْنَاتَا

يمريم

ويقول شاعر آخر وقد أحب من هي في غير متناوله إذ علق بها غيره وتزوجها فأصبح شاعرنا يقاسي من حبها ويترصب للقائها حتى علم به زوجها فأصبح يتوعده لكن صاحبنا يتبرأ منه ويظهر له الحب كما لصاحبه (زوجته) ويحمله مسؤولية قتله اما على يده مباشرة أو على يد زوجته التي سيقنله حبها لا محالة ان لم يقتله زوجها يقول :

كَوْلُ لَعْلٍ عَنْ شَيْنٍ اَعْلِيَةٍ	عَيْبُ لٍ فَالْنَّاسِ اُشْمَتُ
اَنْ هُوَ مَانٍ سَامِيَةٍ	نَبِيَةٍ اُنْبَغٍ صَاحِبَتُ
وَاحْلُوفُ عَنْ يَلْجُـوَادُ	لَاهُ يَكْتَلْنِ مَاهُ كَادُ
يَثْرَكَ عَنْ هَذَا لَمْرَادُ	اَيْفَرَفَ عَنْ رُوحٍ لَا زَمْتُ
اَلَا يَكْتَلْنِ وَلِلْ زَادُ	تَكْتَلْنِ عَزْتُ صَاحِبَتُ

ثم اشربأت الأعناق إلى المرأة النجلاء ذات القامة الطويلة والخاصة الرقيقة والأرداف الممتلئة والخلخل الخرساء ذات الشنب المتلألئ والثديين الناهيتين - فالهمت الشعراء واذكت نار الحب الشوق في نفوسهم فانبرى من يهجر الغيد كل الغيد ويألو على نفسه الا يخطرن بباله إلا من كانت نموذجاً لهذه الصورة فيقول :

مَا تَلَيْتُ اَنْجٍ لِلْغِيْدَاتِ	اِلَّا يَحْجَلْهَا لِي تَخْمَامُ
كُونُ وَحْدَ مِنْهُمْ رَبَّاتُ	تَايِبُ الْمُلَانِ لَحْمَامُ كُونُ وَحْدَ
كُونُ وَحْدَ مُحَزْمَةً زَيْنُ	فِيهِ تَنْتَيْنُ
كُونُ وَحْدَ تَزَهُ لِّلْعَيْنِ	فَالْحَ وَاتَّقَشُ التَّبْسَامُ
غَاشُّتُو بَزْرَاكَ السَّنَيْنِ	اغَاشُّتُو بَزْرَاكَ النَّبَانُ
اغَاشُّتُو بِالرَّكْبِ شَبْرَيْنِ	اغَاشُّتُو بِبَلِيسٍ اَفْلَكَلَامُ

وقال غيره وهو يترصد حركات أخرى ويغرز سهام عينيه في كل ما يرمقه من - أعضائها ويتوسل إليها لتشفيه من آثار سهام لحظها فيقول :

عَنْدُكَ خَشْمٌ أَخَذَ أَعْيُنِينَ	وَأَكْمَامُ وَأَكْلَامُ أَسْنَيْنِ
عَنْدُكَ زَنْدٌ أَتَشْيَارُ أَيْدِينَ	أَعْنَدُكَ صَاكَ أَعْنَدُكَ نَظَرَ
سَلْبُ لَهْلُ الدِّينِ امْنَدَيْنِ	أَلَا خَلَيْتِ عَزْرُ لَمْرَ
يَلُ رَاصِكَ مَا كَيْفُ رَاصُ	سَوَادُ أَتَحْرَاكَ أَظْفَرَ
إِزْكَافِيكَ أَمْنَتْخَرَاصُ	دَاوِينَ يَكَا نَبْرَا

أما شاعر آخر فقد مرت بجانبه من اوقعته في شراكها وقد أوشكت الشمس على المغيب وكانت بجانب زوجها ولشدة هيامه تحين فرصة انشغال زوجها ليبعث لها رسالة بطرف عينه فلم يكن يغمزها حتى صادفت غمزته إياها زوجها يحدق فيه بعينين جاحظتين

فاصفر وجهه واحمرت عيناه من شدة الخوف فأرسل سيلا من الغمزات وكأن به مرضاً مستديماً حتى لا يشك الزوج وثبت على هذه الحالة خوفاً من الوقوع في الخطر طالما أنه معهما فيقول :

يَا مَنْ يَقْلَ غَيْدَ التُّشْهَارِ	اتْفَشْتَوْلْتُ أَنْتُومَ حَظَارَ
خَظْتُ اْمَنْحَذَاكُمْ لَصْفَرَارَ	شَفْتُكَ شُوفَ بَادَتْ بِي
وَتُرْبِي كَثُرَتْ لَخْبَارَ	اْغَمَزْتُكَ غَمَزِي حَيَّ
وَأَفْطَنَ لَ صَيْدِكَ فَاتَ أَشْكَارَ	وَجْهَ وَأَحْمَارَ عَيْنِي
وَأَسْكَنْتُ أَهْلَ ذَاكَ التُّطُورَ	وَأَتَهُمْ عَنْهُ حَسَالَ فِي
أَعَتْ لَا كُذَّ أَمْنِينَ الْيَمَّ	اِنْشُوفَكَ خَوْفَ الْمَشْلِي
الرَّمْشِ عَسِينِي وَأَنْتُمْ	غَمَزِي تَعَكَّبَ غَمَزِي

ومن الأغراض الكثيرة أجاد الشاعر الصحراوي في الأطلال فبكى واستبكى وفكر طويلاً وأرسل الدموع مدراراً وسب على جمعه وتفريقه فقال :

هَذَا الدَّهْرُ اتْفَ بِيْـهَ	مَارَمَ عَنْ غَادَارَ
مَوْلَاهُ تُوْرَ فَيْـهَ	حَلَاوَةَ مَا تَمَرَارَ
خَظْتُ إِهْلَ دَارَ الْيَوْمَ	أَهْلَ أَيَّ يَالْقِيَوْمَ
شَفْتُ أَكُومَ التَّيْدُومَ	لَمْسَهُوَ كَانَ الدَّارَ سَبْحَانِكَ
مَخْرُوكَ أَعَادَ إِخْمُومَ	يَالْقَاهُ هَارَ
مَقُودَ حَرَاكَ أَكُومَ	مَاهُ فَاهَمَ لَخْبَارَ

أف لهذا الدهر ما أغدره كلما حلا لا واعقبها مرارة، مررت اليوم على دار أهل أي وكان بمؤخرتها شجر التيدوم المزهر فأصبح فحماً قاتماً سبحانه اللهم كون من فعل هذا باكوم التيدوم لا يعلم الخبر الم نكن نستظل به بعيداً عن أعين الرقباء ألم يكن علامة مميزة راسخة في الذهن.

مَتَّيْتُ الدَّهْرَ أَمَّاوُنْ
أَعَكَّدْتُ طُلُوعَ وَأَمْهَامَ
أَهْذَى عَمَلَاتِ دَبَّاءِ
وَالْيَوْمَ انْتَرَكْتُ وَيَتَسَاوَى
الْوَجْدُ الزَّيْنُ لَا تَلَاوَى
وُظِّلْتُ عَنَادُ يَنْحَدَاوَى
هَذَا يَحْسَنُ لَعُجُوبَ
أَهْذَى دَارِ الْمَرْغُوبِ
أُذِيكَ أَزْيَبَتْ لَحْلُوبِ
أَعَادُ كَيْفَ الْمَاكُطِ رَاوِ
سَكُنْ فِيهِمْ مَرْغُوبِ
وَمَرَاتَعُهُمْ مَجْدُوبِ

كما أحب الشاعر الصحراوي جملة (ازوزال) انيسه في الغربه وصديقه في البأساء والضراء في الشدة والرخاء فخطابه صديقا وحثه مطية وشكره مساعدا ومعينا على غرار ما فعله الشاعر الجاهلي بفرسه والشعر الحساني في هذا الباب كثير ومتنوع وجميل جدا قال أحدهم :

اَمْشِ يَلِيْنٌ لَا تَخْشَوْنَ
 لَمَّبَاتِ اللَّيْلِ مَا هَـٰذَا
 لَكَ نَوْمٌ رَاتِعٌ مَّأْدِنَاسُ
 نَزَلَ بِكَ اخِذَ زَادِ نَاسُ
 وَآمِنِيْنِ ارْكَبْتِكَ عُودَ حَاسُ
 لَعَتِ الْمَنَ يَأْكُنُ
 يَلِيْنٌ فَـرَعُ اَرَاكُنُ
 لَوْنُكَ مَلْعَرَكُ زَادِنَاسُ
 مُرْتَعُ فَمِ اَبَادِنُ
 بَخْلَاكُ شَوْرُ الْبَاطِنُ

وقد أطلق الصحراوي على جملة أسماء عدة فهو في هذه الطلعة (اللين) وفي غيرها الأشعل أو لحامي أو لحيمي أو ما يمتس أو الزينج والنظافة وغير ذلك من الأسماء. وعلى ذكر (أزوزال) لا بأس أن نشير إلى أنه يعني الجمل المخصي المعد للركوب وقد أطلق الإنسان الصحراوي مسميات عدة على جماله في مختلف مراحل سنّها فهناك أزوزال وهو الجمل المخصي ويستعمل للركوب والحمل ومختلف الاستعمالات وإذا ما اخصي في سن مبكرة سمي أراج وان كان في طور التدريب سمي أشنان وهناك للعود وهو فحل الأبل المخصص لتعشير النوق ولا يستعمل لغير ذلك غالبا نظرا لصعوبة طبعه وقساوة أمساكه اما الناقة فهي التناسل والحب وان دربت على شد الرحلة والركوب سميت الصحيح قال الشاعر في صيدحه المسماة اللوادة :

اعْلُ الْلُؤَادُ لَا نُصَبُ رَاحِلَ عَنْ لَمَحَالِ
كَافِينَ كَاغْ إِلَى ارْكَبْتُ وَأَعْطَيْتُ اعْشَرُ لِيَالِ

ويسمى ولد الناقة عند ولادته لحوار وعند بلوغه سنة يسمى ابن لبون وبلوغه سنتان سمي حك وبلوغه ثلاث سنوات يسمى أجدع ثم أربع أو أسداس حسب بلوغه سنين ستة أو سبعة.

لقد جئت بهذه الفقرات من أجل الفائدة فقد أما ما يعنينا هو علاقة الصحراوي بالجمال كجزء من بيئته والتصاقه به ومناجاته إياه في أشعار كثيرة. قال أحدهم :

رَاجِ فَالْلُ إِذَاكَ جَادُ أَفْزِينِ لَا يَرْزِينِ
فَزُوْزَالُ فَمْنِينِ عَادُ يَرْكَبُ وَكُطُ أَفْزِينِ
عَاكِبُ تَسْدَارُ فَاوْكَارُ وَكُدَ تِيرَسُ وَكُدَ أَدْرَارُ
وَمَسَاكُ وَعَلَابُ شَارُ وَأَبَعْتُ إِلْ يَلْهِينِ
هَذَا جَيْتُ اعْلَا يَدَارُ وَأَفْزِينِيهِ إِرَاعِينِ

فالشاعر يجد في جملة عوضا عن محبوبته بعدما ابتعد عنها فكأنه يأتي في الدرجة الثانية بعدها حيث يقول (وابعت ال يلهين) فاللهم لا تريني مرزية في ازوالي في الوقت الذي يهبط ويصعد في جبال زيني.

أما الآن ان سمحتم فسأعطي بعض المقارنات بين الشعر الحساني والعربي وغيره من حيث المبني والمعنى رغم أنني قد أشرت إلى ذلك سابقا خلال الحديث عن - الأغراض وعن الكاف والطلعة وغيرهما ولكن تعميما للفائدة أشير إلى أن الشعر الحساني مقارنة مع الشعر العربي نجد أن المواضيع التي طرقها الأول طرقها الثاني لكن الحسانية أكثر تركيزا بحيث أن الأبيات العربية المتعددة تلخص أحيانا في كاف واحد بشكل من البساطة والتلقائية يعجب له السامع ويطرب، - ذلك أن الحسانية لغة هذا الشعر شديدة الاختصار فكلمة واحدة تقوم مقام شطر أو شطرين من الكلام ونظرة واحدة كلمح البصر بين الاثنين تجيب عن كل التساؤلات ويرجع ذلك إلى مدى الذكاء الذي يكون عليه الشاعر الصحراوي مما ينعكس على شعره، وقد وجدت من حيث المبني أن للشعر الحساني اشتراكا مع الموشحات في اللازمة المتكررة وهو ما نسميه (الطلع المظايرات اعل كاف) أي الضرات اللائي يشتركن في كاف واحد. كما أن حمر الطلع التي تشترك في روي واحد شبيهة بالقفل أو البيت في الموشح

وأقرب ما يكون لانطلاقة الطلعة الحسانية ما سمي في الموشح بالمسمط كقول بعضهم :

غَزَالُ هَاجَ لِي شَجْنًا فَبِتْ مُكَابِدُ حُزْنًا
عَمِيدَ الْقَلْبِ مُرْتَهَنًا بِذِكْرِ اللَّهِ وَالطَّرِبِ

ويقول الشاعر الحساني :

يَا مَسْ تَدَلَيْتِ الْخُتَابَ اغْزِيزِي نِيكَ اغْذَابَ
اَتْرَكْبُ خَرْبُ افْبَابَ خَيْمَتُهُ تَرْكَابَ
هُوَ حَالَتْ تَرْكَابَ لَخْرَابُ أَهْلُ بَابَ

وفي الموشح قد يكتمل المعنى في الأشطر الأربعة خلافا للطلعة الحسانية بهذه الصفة التي لا يكتمل فيها المعنى إلا إذا اكتملت ستة شطر. وظهر في الموشحات أيضا ما يسمى المزدوجات وهو أن يوتى بشطرين من قافية ثم بآخرين من قافية أخرى كقول أبي العتاهية :

حَسْبُكَ مَا تَبْتَغِيهِ الْقُوْتُ مَا أَكْثَرَ الْقُوْتُ لِمَنْ يَمُوتُ
إِنْ الشُّبَابَ حُجَّةَ التَّصَابِي رَوَائِحُ الْجَنَّةِ فِي الشُّبَابِ

ولو شكلت أشطار المزدوج كأفا حسانيا من حيث المبنى تماما. وفي الموشح أيضا ما يشبه الكاف من حيث المبنى كقولهم :

هَلْ دَرَى ظَبْيُ الْحَمَى أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبُ حُبٍّ حَلَّهْ عَنْ مَكْنَسِ
ظَهَوْ فِي حَرٍّ وَخَفَقَ مِثْلَمَا لَعِبَتْ رِيحُ الصُّبَا بِالْقُبْسِ

وهي من رائعة ذي الوزارتين لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب.

جَادَكَ الْفَيْتُ إِذَا الْفَيْتُ هَمَى يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا فِي الْكَرَى أَوْ خِسْلَةَ الْمُخْتَلِسِ
إلى آخرها.

وفي نظم بعد الأبيات الفرسية وجدت على أنها شبيهة بالكاف الحساني من حيث مبناه واستسمحكم في عدم اعطاء أمثلة في الموضوع لأنها لا تحضرني الآن.

أما قصيدة الملحون فلا شك أن لها وجه الشبه مع الطلعة الحسانية فمن حيث تكرار الكاف بين القصائد المتعاهدات (الضررات) على كاف واحد نجد في قصيدة الملحون تكرار الحربة بين كل قسم وقسم من القصيدة وغالبا ما تتكون الحربة من شطرين مختلفي الروي وتأتي الحربة أحيانا موزونة على شكل كاف حساني كما في قصيدة ازهيرو لسيدى محمد الدباغ حيث يقول :

مالك على الوصال غافلة يا الغزال ازهيرو زوريني يا راية النصر
شرع الله امعاك واش لعشير ادوز اعشيرو والغايت ما يحويه الصدر

كما قد تأخذ بعض القصائد في الملحون نفس مبنى الكاف المثنى الذي يجري مجرى الكاف ويعد طلعة كما نجده في المثال التالي وهو قصيدة رائعة لأحد شعراء الملحون أبو عبيد الشرقي وهي على شكل اغراء فقيه متعبد يريد الشاعر أن يغريه بمجالس الإنس واللعب مع المغنيات الجميلات يقول :

الفقيه لو نظرت اعويشة تسقي الفقيه والكأس من يدها يحلى لك

وهذه حربتها من شطرين ثم يضيف :

الفقيه جيت لك تنظر شوقي الفقيه من خاطري بغيت انسالك
الفقيه افتيلي نعرفك نوقي الفقيه الخمر واش عندك سالك
الفقيه الخمر فشراب عشيقى نبي تحللها بمقالك
الفقيه لحضرة المدام ترقي افتي من احسان كمالك

الفقيه لو انظرت اعويشة تسقي

ولا شك أن هناك نماذج كثيرة لقصيدة الملحون يلتقي معها الكاف أو الطلعة الحسانية في الوزن أما الغرض الشعري ومعالجة الموضوع من جوانب شتى فكلنا قيل يقع الشاعر على الشاعر كما يقع الحافر على الحافر، انما تجدر الإشارة هنا إلى موضوع واحد تطرقت له القصيدة العربية وكتب الأدب حبلى به منذ العصر الجاهلي إلى الآن مروراً بالعصر العباسي فالأندلس وغيرها كما تطرقت له القصيدة في الملحون وعالجته من جوانب عدة الا وهو الخمرات وهو الشيء الذي ينعدم في القصيدة الحسانية اطلاقاً بل كانت القصيدة والكاف الحساني يسموان عن مثل هذا الغرض، لانعدامه بتاتا في الحياة الصحراوية وكذلك الشأن بالنسبة للشعر الاباحي إلى أن تغير المجتمع الصحراوي واختلط فظهر ما يسمى

بالتبراع الذي لا يخضع لوزن الكاف ولا الطلعة وانما ظهر على شكل شطرين كحربة الملحون لهما نفس الروي وهما بمثابة تعبير للمرأة عن هيامها وتعلقها بالرجل كقولهم مثلا :

يَا بَالُ نُوصِيكَ	- لَا تَبْنِ كُفُونِ الْ نَبِيكَ
أَلَكُنْتَ أَمْ	- مَا نَرَقْدَ فَمَ عَنْ فَمَ
امْتَصَابُ بَيْتِ	- مَا يَتَخَزَنُ مَا مَسِيَتْ
أَزِينِ الدَّرَاغَ	- أَعْلَى مُـدِيرِ الزَّرَاغَ
السُّبْعِ فَلْفُؤَادَ	- الْغَيْرِ مَا كَانَ إِلَّا عَادَ
وَالسُّبْعِ لَجَانِ	- نَسُو خَلْقَ اللَّهِ غَدَانِي
وَالسُّبْعِ يَلَمُ	- نَادِ لِبَيْكِ اللَّهُمَّ... الخ

ولم تذكر الخمر في الشعر الحساني الا على سبيل مثال تحمل المحرمات من أجل

ارضاء المعشوق أو التحمل الاقصى من جزاء الحب قال بعضهم :

رَيْكَ مِنْ تَفْلَاجٍ	سَنُيْكَ اثْوَفَاجٍ
نَبْسَانُكَ فَلَفَاجٍ	الْحَكْنُ عَمَلُ مَسَامٍ
وَأَسْكَانُ فَلَجَاجٍ	الْخَمْرُ إِذَاكَ أَخْرَامٍ
مَغْنَانِي يَالْمَنَانُ	كَنْتُ أَنْ عَنْ تَبَسَّامٍ
فَمَ أَحْدِيدُ انْشِيْفَانُ	وَأَمَشْتَرَكُ فِيهِ الشَّامُ

وما دمت بصدد المقارنة اعطيكم نموذجا للتضمنين ضمن فيه الشاعر الصحراوي -

أبياتا من قصيدة أبي البقاء الرندي لكل شيء إذا ما تم نقصان فقال :

هِيَ لُمُودُ إِلَّا دُولَاتُ	سَاعَ هَاكَ أَهَاكَ اسْوِيعَاتُ
مَا يَدُومُ إِلَّا تَفْتَاتُ	عَلَى حَالٍ لَهَا شَأْنُ
أَيْنَ ذُؤَا النَّجِ السَّادَاتُ	وَأَيْنَ مِنْهُمْ تَبِجَانُ
جَاتِ عَلَيْهِمُ فَالدَّهْرُ أَوْفَاتُ	كَيْفَ الْ مَاكُطُ كَانَ
فَجَايِعُ ذَا الدَّهْرُ إِلَّا فَاتُ	مَسَرَّاتُ وَأَخْزَانُ
وَالْمَنَةُ جَ عِنْدَ نَوْبَاتُ	مَاهِيْنُ مَاةِ نَسِيَانُ
كُفُونُ إِرَ بَلْ مَلِيْعَاتُ	نَسِيَانُ مَا حَانَ أَوَانُ
جَيْتُ انْزُودُ فَقَيْتُ اشْوِي	غَيْرُ اجْبَرْتُ اتْبَدَلُ شَانُ
وَأَعْرِفْتُ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ	إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ

ونخلص من هذه القصيدة إلى المحور الأخير في هذا العرض المتواضع وهو انتقال الأدب الحساني من بيئته البدوية الصحراوية إلى مدنية الحديثة، لقد ألم الشاعر الحساني بتصوير بيئته تصويراً محكماً شاملاً متنوعاً تنوع نباتاتها وكتبانها واديتها وحيواناتها وغدرانها ولما انتقل إلى مدينته الحديثة صور المدن والأسفار بالطائرة والسيارة وصور القصور والمؤتمرات واللقاءات الدولية والسياسية وغيرها وهذا ما يدل على أنه متمكن من مادته الشعرية أيما تمكن يضيفها حلة على أنماط بيئته حيثما حل وارتحل، متى وكيفما شاء.

استعاض الصحراوي عن أزوال بالسيارة فقال في معرض حديثه عن تلبية رغبات محبوبته :

هَذَا نَ غَتِ الْأُتُوفُ خَاتَرَتُ نَشْرِيهَا
بِي صَاحِبَتِ مَا تُشُوفُ وَتُ مَا رَكِبَتْ فِيهَا

ثم أحس الشاعر الصحراوي بالأحداث من حوله فلم تثنه عن تذكّار محبوبته والتغزل بها فقد قال أحدهم سابقاً في بيئته الصحراوية وقد كثرت الفتن وأحدثت الأحلاف وطفّت المشاكل والخلافات فوجد أن نظرة وابتسامة من معشوقة كفيلة بإرجاع المودة والإخاء إلى صفوف هؤلاء المتناحرين قال :

إِدْلِيمُ أَغْيَلَانُ أَمَشْطُوفُ كَعْدُ فَالشُّرَافِيَةُ أَكُوفُ
عَادَ الْخُوفُ الْمَشْطُوفُ إِطُوفُ مِنْ غِيْلَانُ أَفْهَذَا الزَّمَانُ
وَبَيَّيْرُ وَسَبَّاعُ الْأَشُوفُ يَعْكَبُ شُوفُ أُمُوتُ الْغِيْلَانُ
وَأَجْوَاكِينُ إِنْكُونُ لِلُوفُ الدُّوزْهُمُ لِلشُّرُ أَعْوَانُ
هَذَا الشَّافُ يَالرُّوُوفُ تَتْفَانُ أَطْفِيلُ هُوَ اثْبَانُ
تَتْبَسَّمُ وَدَمَّكَ لَحُوفُ يَتَخَاوُ مِنْذَاكَ التُّتْفَانُ
إِدْلِيمُ أَغْيَلَانُ أَمَشْطُوفُ وَبَيَّيْرُ وَسَبَّاعُ أَجْكَانُ

ولما تغيرت البيئة والظروف من حوله قال :

هَذَا الْعَصْرُ الْيَوْمُ إِلْ بَانَ فِيهِ أَكْهَدَاتُ اثْبَانُ الثِّيْرَانُ
رَادَ عَلَيْهِ الْحَيُّ الْمَنَانُ عَنْ مَا تَطْفَ نِيْرَانُ
فَاتَ الْعِرَاقُ أَمْعَاهُ إِيْرَانُ فَالْحُرُوبُ الْكَبِيلُ انْهَانُ
وَالْخَلِيجُ إِلْ فَاتَ اشْيَانُ انْهَانُ فَاتَ سُكَّانُ

كَانَ ابْغَيْنِي يَالْعُرَادُ
 وَلَ مَا عَيْنِكَ فِي زَادُ
 نَبْغِي كَانُ ابْغِيَتِي
 وَاخْزِيكَ هُوَ وَاخْزِي
 وَاَعْلُ اُكْفُ اَيْدِكَ لَا لَحْتِي
 اِغْلِي ذَاكَ اِغْلِي
 حَتَّانَ مَا عَيْنِ فِي
 اِنْكْرَهْنِ كَانُ اِنْكْرَهْتِي
 يَشْتَدُ لُتْنِي عَلِي
 نَلْتَا حِ اَعْلُ اُكْفُ بِيَدِي

ورغم ذلك فالشعر الوطني لا يخلو من جودة ورقة وحسن تصوير وإبداع فني لدى العديد من الشعراء فصور المسيرة بأحداثها منذ انطلاقها إلى نهايتها وصور قمة فاس ولقاء الطائف وحرب الخليج ومعاناة فلسطين ولا زال في مسيرته يرافق الأحداث إلى اليوم لكن معاناة الأدب الحساني تكمن في كونه غير مدون بل تحفظه الذاكرة وتلوكه الألسن. وكما توفي كبار السن من حفظته أقلت نجومه واستوطن القبور بدلا من السجلات والكتب والمذكرات.